كلمة الملك عبدالعزيز للوفد السوري قبل «٧٢» عاماً
ثبات الموقف بين المؤسس والأبناء

خلال قراءتي لكتاب (بجوار الكعبة المشرفة) للصحفي محيي الدين رضا(١) ابن أخي العلامة محمد رشيد رضا والذي سجل فيه مشاهداته للحج عام ١٣٦١هـ، شدني في الصفحة السابعة والثمانين حديث الملك عبدالعزيز رحمه الله إلى الوفد السوري والذي يحثهم فيه على التماسك وعدم التخاذل وتقديم المصلحة العامة وعدم التقاتل لأجل المناصب، وكأن التاريخ يعيد نفسه وما أشبه الليلة بالبارحة، فبعد ٧٢ سنة نرى خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز يبذل الغالي والنفيس من أجل استقرار سوريا وغيرها. وهذا ليس بمستغرب فهو خريج مدرسة الملك عبدالعزيز الذي وحد البلاد على الكتاب والسنة وألف القلوب بعد تفرقها وذلل الصعاب لننعم بالأمن والأمان، ونحمد الله أن سار أبناء المؤسس على خطى والدهم رحمه الله فمواقف المملكة ليست نابعة مما تمليه الأحداث والأهواء، بل هي ثابتة ونابعة من نصرة المظلوم أينما كان وما تمليه شريعتنا السمحاء.

وبتصفح الكتاب نجد حديث الملك عبدالعزيز رحمه الله للسوريين حينما زاره وفد من أبناء سوريا يوم الأحد ١٨ يناير سنة ١٩٤٦م في قصر الزغفران، وكان دولة السيد جميل مردم بك (٢)، وزير سوريا المفوض بمصر وقتئذ، يقدمهم إلى جلالته، فصافحهم فرداً فرداً ورحب بهم، وأخذ يلقي عليهم درره الغالية من النصائح الحكيمة، فقال:-

((إننا مسلمون وعرب نفخر بتاريخنا ولاسيما في عصر النبوة وما تلاه من عصر الخلفاء الراشدين. ولقد كان أهم عامل في نصر العرب التضامن والتساند والطاعة. فأوصيكم بأن تنهجوا على الطريق الذي سار عليه سلفكم العظيم.

اعتمدوا على أنفسكم بعد الله فأنتم الشعب ولكم النصر والبقاء ولا تعتمدوا على ملوك أو أمراء (٣)، ولا يحرص أحد منكم على الكراسي في سبيل ذلة الوطن. اعملوا لأنفسكم ولأوطانكم وليكن أمامكم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله

وأنكم أنتم يا أهل سوريا جاهدتم أكثر من غيركم جهاداً متواصلاً وكنتم خير قدوة من قديم الزمان إلى اليوم

إبراهيم بن حمد آل الشيخ

عليه وسلم. وليكن كل منكم جندياً في صفوف الوطن.

وأنني أفخر بأن معظم العاملين معي هم من أهل سوريا، وأنني لا أطلب منكم العمل إلا لخدمة أنفسكم، فأنا لا أحرص على إحلال أحد من أولادي عندكم، بل إنني أقول لكم بصراحة: إن الخير كل الخير لكم في اعتمادكم على أنفسكم وليس على أحد آخر مطلقاً حتى ولا على أولادي!

لقد بادرت بالاعتراف بسوريا، ولقد سبّب اعترافي بها إبانة عدم راحة بعضكم – أليس كذلك يا جميل مردم؟ (فقال جميل بك: نعم).

لأنني أعد نفسي عاملاً لرفعة شأن بلاد العرب كلها، فوعدني بمساعدة العرب. ونحن جنود لخدمة الوطن العربي في كل بقعة من بقاعه نعمل بكل قوانا لإنقاذ البلاد العربية من براثن أوروبا)).

وتطرق المؤلف في كتابه إلى مقابلته الملك

قابلت روزفلت فتكلمت معه بشأن سوريا ولبنان وفلسطين، ولم أتكلم معه بشأن بلادي خاصة

عبدالعزيز وطلب من جلالته التفضل بحديث لجريدة الكتلة ونشرته جريدة الرأي العام في عددها السادس من السنة الثانية لعام ١٣٦٦هـ، فقال المؤلف: أتيح لي التشرف بمقابلة جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود في قصره العامر بالمعابدة في مكة المكرمة قبيل ظهر يوم الاثنين غرة المحرم سنة ١٣٦٦هـ ثم ذكر: تحدث جلالته عن نبذ الحزبية (وجلالته يرى أن التحزب هو بدعة أوروبية لا تفيد الشرق في حالته الراهنة وعلى الأسلوب الذي سرنا عليه من التنازع والخصومات، لأن الإنجليز مثلاً لا تتأثر هيئاتهم وجماعاتهم بالخصومات أمام الشيء المفيد لبلادهم، فكلهم يتفقون على العمل لخير بلادهم. وأما نحن فإننا نعمل لمحاربة بعضنا بعضا من أجل الوصول إلى كراسي الحكم، فحبذا لو أننا نتحد للعمل لما فيه خير البلاد أولاً وقبل كل شيء. إن السياسي الذي يعمل لجمع كلمة الأمة وتوحيد صفوفها هو الذي يستحق الحب والاحترام من الجميع.

ثم ذكر: ليس معنى دعوتي للاتحاد أنني أدعو لترك الحزبية، كلا، فإنني أظن أن هذا الترك ليس من السهل تحقيقه، وإنما اود الاتحاد فيما فيه خير البلاد قبل كل شيء.

ولقد قلدنا الغرب في التحزب ولكن فاتنا أن الغربيين ينبذون الحزبية إذا تعارضت مع مصالح بلادهم كما هو المشاهد والمحقق للجميع، فالإنجليزي إنجليزي قبل كل شيء، والفرنسي فرنسي قبل كل شيء.

وإنني أدعو العرب جميعاً للالتفاف حول جامعة الدول العربية لأن خصومنا أقوياء وفي اتحادنا قوة لنا جميعاً. ولقد استطاع اليهود أن يقنعوا العالم أن العرب لا يمكن أن يتفقوا ويتحدوا فلنكذبهم بشيء يعود علينا بالخير العميم والنفع المحقق.

ولقد فهمت من الذين اجتمعت بهم من الإنجليز أنهم في هذا الدور يودون الخير لمصر ويريدون الاتفاق معها. ولقد حدثني قائد بريطاني كبير بذلك أيضاً وأكد لي أن جلالة الملك فاروق محبوب في إنجلترا ومعروف بنفوذه العظيم ومكانته الشعبية وإذا أبدوا شيئاً من الحيطة فإنما يعود ذلك لنشاط آراء خطرة تبث في البلاد العربية وينفق في سبيل بثها مالاً كثيراً ومجهودات كثيرة وقوية.

ومن هذا يتبين لنا حرص الملك عبدالعزيز على جمع كلمة المسلمين ونبذ الحزبية والتمسك بالشريعة السمحة رحمه الله رحمةً واسعة فلقد سبق عصره بنظرته الثاقبة .

وما موقف خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله ملك الإنسانية من القضايا الإسلامية وتلمس احتياجاتهم إلا امتداد لما بناه موحد الجزيرة.

(١) محي الدين صالح مخلص رضا: أديب صحفي لبناني، توفي بالقاهرة، من كتبه:(رحلتي إلى الحجاز) و(لمحة من سيرة الملك عبدالعزيز) و(بلاغة العرب في القرن العشرين) و(في مواطن جبران خليل جبران) عمل في قسم الأخبار في جريدة المقطم.عاش نحو ٨٥ عاماً. الأعلام بالزركلي ج٧/ ١٩٠

(٢) جميل مردم (١٨٩٤ – ١٩٦٠م)، وزير من رجال السياسة. تعلم بفرنسا وكتب منها إلى صحف دمشق، وكان مستشارا خاصا للأمير فيصل بن الحسين في دمشق (١٩١٩) وحكم الفرنسيون بإعدامه لما دخلوا سورية (١٩٢٠) فأقام في القاهرة ١٢ عاماً. وعاد إلى دمشق، فكان وزيرا للمالية. واستقال (١٩٣٩) وهمّ الفرنسيون باعتقاله ففر إلى العراق. ثم عاد الى دمشق فكان في عهد القوتلي وزيراً للخارجية. وترأس الوزارة ثلاث مرات وتوفي بالقاهرة ونقل إلى دمشق. الأعلام للزركلي ٢/١٣٨

(٣) كان الزعيم شكري القوتلي من أبرز المناديين بتسليم الملك فيصل بن عبدالعزيز الحكم في سوريا بعد أن تصبح مملكة دستورية .
المصدر: "رحلتان إلى الحجاز ونجد، تأليف: محمد بهجة البيطار ومحمد سعود العوري ص٧ ".